

في سؤال الديداكتيك

طاب عيسى

ماجستير فلسفة

وزارة التربية الوطنية

Philos.032@gmail.com

ملخص:

إن التطور الهائل الذي يعرفه البحث في الديداكتيك في الغرب، يسائلنا اليوم بصورة ملحة أكثر، خاصة في زمن الإصلاحات التي تعرفها المنظومة التربوية في بلادنا. إذ من المعلوم أن نجاح الإصلاح يتجلى أكثر في العلاقة التفاعلية بين أطراف العملية التعليمية، بين المعلم والمتعلم أو بين التعليم والتعلم. إذ لا قيمة لأي منهاج أو برنامج أو كتاب مدرسي، أيا كانت جودته، ما لم تتم ترجمته بصورة فعالة داخل الأقسام. وهو ما يطرح مسألة تكوين المعلمين والأساتذة وتأهيلهم للتكيف مع مستجدات هذا الإصلاح وروحه التي تتمثل في الانتقال من منطق التلقين إلى منطق التعلم، ومن

العلاقة العمودية إلى العلاقة التشاركية. الشيء الذي يقتضي من المعلم حسا استراتيجيا وقدرة على التصميم والإنتاج.

Résumé

L'indéniable développement de la recherche didactique que connaissent aujourd'hui les pays occidentaux nous interpelle , et au moment même des réformes que connaît le système éducatif de notre pays. De toute évidence, la réussite des réformes se traduit dans la relation interactive enseignant/élève et/ou enseignement/apprentissage . En effet , un programme d'enseignement ou un manuel scolaire ne peut être fiable sans une réelle et efficace mise en pratique dans les classes. Tout ceci est une invitation à soulever la question de la formation des enseignants et leur qualification afin de pouvoir se mettre au diapason des changements . Ceci dit , passer d'une logique d'enseignement transmissif à une logique d'enseignement constructif , favorisant ainsi la relation de partenariat qui nécessite le choix d'une stratégie d'enseignement et une remise en question constante de la part de l'enseignant.

في سؤال الديداكتيك

إن التطور الذي يشهده الفكر التربوي المعاصر، بإلحاح من مطلب عقلنة وترشيد العملية التعليمية والاهتمام بالتنوع وتحسين المردود التربوي يتجلى أكثر في الاهتمام بالفعل التعليمي-التعليمي وبشروط إنجازه مستفيدا في ذلك من معطيات التقدم الذي تعرفه علوم السيكولوجيا والسوسيولوجيا وكذلك البحوث البيداغوجية والابستمولوجية، ويتمثل هذا الاهتمام فيما يمكن تسميته بالاندفاع في مجال البحث في الديداكتيك والاكتساح الذي يقوم به هذا الأخير لحقول تربوية مثل البيداغوجيا. وقد أصبح مصطلح ديداكتيك من أكثر المصطلحات رواجاً في الأدبيات التربوية المعاصرة. وبالفعل فإن التراكم المتزايد للبحوث الديداكتيكية أصبح يعبر اليوم عن هوس ديداكتيكي، يسميه بيار بارلوبا Pierre Parlebas " انحرافا ديداكتيكيا Débauche didactisante " ¹. ما يثير إشكالات عدة سواء ما تعلق منها بدلالة المصطلح وموضوعه ومفاهيمه أو ما يرتبط بعلاقته بالبيداغوجيا وباقي علوم التربية.

ولكن لما كان مطلب الإصلاح التربوي عندنا أكثر إلحاحا نظرا للأزمة التي تعرفها منظومتنا التربوية، ولما كان نجاح الإصلاح مرهون بتفعيل الأداء التربوي داخل الأقسام وما يقتضيه ذلك من تكوين للمعلمين وإعادة نظر في المناهج التربوية وفق مقتضيات الفعل التعليمي-التعليمي وشروط إنجازه وارتقاء بالتأليف المدرسي وصولاً إلى إطلاق البحث العلمي في هذا المجال، نرى أن سؤال الديداكتيك أصبح اليوم أكثر إلحاحاً وهو يطرق أبواب منظومتنا التربوية بقوة.

وبقدر ما تتطلع هذه المقالة لأن تطرح كل الأسئلة التي يثيرها البحث في الديداكتيك فإنها ستكتفي بطرح أسئلة البدايات، بوصفها فاتحة لبحوث مقبلة في هذا المجال الخصب، لعلها تتمكن من تحريك النقاش في هذا المضمار الحيوي من حياتنا المجتمعية.

فما الديدانكتيك ؟ هل هو علم جديد من علوم التربية ينحو إلى الاستقلال بموضوعه ومنهجه أم هو فن تطبيقي ؟ وهل علاقته بالبيداغوجيا تعبير عن تواصل أم تمفصل ؟ وما هي أهم مفاهيمه ؟ وما وجه إلحاحه ؟

في التطور التاريخي للمصطلح :

سنحاول تتبع الدلالات التي ما انفك يكتسبها المصطلح تاريخيا وصولا إلى الاستخدام الحالي. فاللفظ قديم جديد، إذ هو من أصل يوناني Didaktikos وتعني " فلنتعلم، أي يعلم بعضنا بعضا " وهي مشتقة من مصدر يوناني Didaskein وتعني التعليم . إذ كانت تطلق عندهم على ضرب من الشعر يتناول بالشرح المذاهب الفلسفية والعلمية لعامة الناس وتبليغ دلالاتها المستعصية عليهم. وقد استعمل اللفظ في البداية للدلالة على فن التعليم، وذلك في الأدبيات التربوية من بداية القرن السابع عشر من طرف كشاف هيلفج K.Helwig وراتيش W.Ratich في بحثهما: " تقرير مختصر في الديدانكتيكا عند راتيش ". كما وسم أموس كومنيوس سنة 1657 كتابه ب: " الديدانكتيكا الكبرى " Didáctica Magna. ويعد هذا الأخير الأب الروحي للبيداغوجيا ويعتبر الديدانكتيك فنا عاما للتعليم وللتربية أيضا وتدل الكلمة حسبه على فن تبليغ المعارف لكافة الناس.

ومع بداية القرن التاسع عشر يعد الفيلسوف الألماني فريدريك هربارت واضع الأسس العلمية للتعليمية كنظرية للتعليم إذ اهتم بأساليب تبليغ المعارف للمتعلم من طرف المعلم وتحليل نشاطات المعلم داخل القسم.

وظهر تيار التربية الجديدة بزعامه جون ديوي مع بداية القرن العشرين حيث أكد ديوي على فعالية المتعلم، واعتبر الديدانكتيك نظرية للتعليم لا للتعليم.

وهكذا يكون قد استعمل للدلالة على كل ما يتعلق بالتعليم ويتمثل في الأنشطة التي تجري داخل الأقسام وترمي إلى تبليغ المعارف والمهارات المختلفة . وقد ترتب عن هذا الاستعمال تيارين يوظف الأول هذا اللفظ باعتباره صفة تضاف لكل النشاط التعليمي الذي يجري داخل الأقسام أما الثاني فينظر إلى الديدانكتيك بوصفه علم مستقل من علوم التربية. ولكن البحث الديدانكتيكي المعاصر لا يمكن التأريخ له بأبعد من ثلاثين سنة من القرن المنصرم فيما يذهب إليه فيليب سارمجان²

وتعود إرهافات البحث الديدانكتيكي فيما يرى البعض إلى سنة 1957 تاريخ إرسال المركبة الروسية سبوتنيك إلى الفضاء وهو الحدث الذي وضع الغرب أمام تحدي تكنولوجي تمخضت عنه قناعة بأن الاستثمارات المالية الضخمة وحدها لا تكفي بل يقتضي الأمر توفير الكفاءة العلمية الأمر الذي يحتم التفكير وجودته ما ترتب عنه تشكيل لجان تفكير في الإصلاح التربوي ومنها لجنة الدراسات في العلوم الفيزيائية سنة 1956 ومشروع هارفارد للفيزياء 1964-1968 ولجنة لاغارغ بفرنسا التي قدمت تقريرها سنة 1971 ولجنة نيفيلد 1960-1970. وقد تمخض عن ذلك ظهور أولى المختبرات في فرنسا ومنها مختبر LIREST الذي أشرف عليه دولاكوت وكذلك LDPEP للعلوم الفيزيائية.³

وتعد مرحلة الثمانينات الانطلاقة الفعلية للبحوث في مجال الديداكتيك. وتعتبر أعمال غاستون باشلار في الاستيمولوجيا وجان بياجي في البنائية وعلم النفس المعرفي مرجعية لتلك البحوث خاصة فيما تعلق بتمثيلات التلاميذ وتفاعلهم مع محيطهم الطبيعي والاجتماعي. ومن الظواهر التي دفعت لانطلاق البحوث الديداكتيكية في العشرينات الأخيرة من القرن المنصرم ظاهرة الفشل المدرسي وتراجع العلمي والمستوى الثقافي للتلاميذ، الذي أصبح ظاهرة عالمية ويعتبره البعض ومنهم Michel Develay السبب المباشر.

في تعريف الديداكتيك :

يفضل كثير من الباحثين العرب تعريب اللفظ " ديداكتيك " بدل ترجمته تجنباً لكل لفظ اصطلاحي أو تضخم سيماني، إذ يعبر عنه بألفاظ مختلفة : تعليمية، تعليمات، علم التدريس، علم التعليم، التدريسية... وليس من شأن ذلك سوى أن يؤدي إلى ضرب من الانزياح، الذي يحرفنا عن إشكالاته الحقيقية المتمثلة في مباحثه وعلاقاته بعلم النفس والبيداغوجيا والاستيمولوجيا، إلى نقاش لساني لا يفي الغرض. والغالب من بين كل تلك الألفاظ في الاستعمال العربي هو لفظ : " التعليمية" وإن كان البعض يفضل : " تعليماتية"⁴. ويعتبر حنفي بن عيسى التعليمية مصدر صناعي للفظ " تعليم " المشتق من الفعل " علّم " الذي يعني وسم ووضع علامة.

ولمقاربته سنبدأ بعرض بعض التعريفات وصولاً إلى التعريف الذي نعتقد أنه يعبر عن اللحظة الراهنة من تطور هذا المبحث للوقوف على الدلالات التي يحيل عليها حالياً. لقد جاء في موسوعة لالاند: " جزء من علم التربية موضوعه التدريس"⁵.

وهو بالنسبة للاكومب 1968 Lacombe.D نهج أو أسلوب لتحليل الظواهر التعليمية . وهو عند B.Jasmin تفكير في المادة الدراسية بهدف تدريسها. ويعدده 1974 M.Reuchlin مجموع الطرائق والتقنيات والوسائل التي تساعد على تدريس مادة معينة. أما 1988 R.Legendre فيعرفه بأنه : (علم إنساني مطبق موضوعه إعداد وتجريب وتقديم وتصحيح الاستراتيجيات البيداغوجية التي تتيح بلوغ الأهداف العامة والنوعية للأنظمة التربوية)⁶.

وهو بالنسبة لبنشامل Pinchmel " الديداكتيك مجموع الطرق والأدوات التي تستهدف مساعدة المدرسين على تنظيم تعليمهم وممارسة أفضل لمهنتهم " ⁷. وهي عند مياالاري G. Mialaret " الديداكتيك موضوع يهتم بالتدريس ويتخذ هدفاً له، وبالتالي فهو يحدد مجموعة من الطرق والتقنيات الخاصة بالتدريس مع تحديد وسائل العملية التعليمية- التعليمية " ⁸.

وقد عرفه محمد الدريج بقوله : " هي الدراسة العلمية لطرق التدريس وتقنياته، ولأشكال تنظيم مواقف التعليم التي يخضع لها المتعلم، قصد بلوغ الأهداف المنشودة، سواء على المستوى العقلي المعرفي أو الانفعالي الوجداني أو الحس حركي المهاري"⁹.

ومع ذلك فهذه التعريفات- وهي عديدة- تفي ببعض الغرض، وذلك لأنها من ناحية ترتبط بمرحلة من تطور الديداكتيك ومن ناحية أخرى تعبر عن منظور معين وهو ما يعبر عن الطابع الإشكالي للمفهوم أكثر مما يفيد التعريف. فضلا عن أنها تطرح أكثر من إشكال خاصة عند ملامستها لحقول معرفية أخرى مثل البيداغوجيا وقد أشرنا إلى ذلك من قبل إذ أكد على واقع التقاطع والتداخل بين الديداكتيك وكثير من علوم التربية. وبالتالي فخير طريق للإحاطة بالمفهوم هو القيام بعمل استنتاجي من تلك التعريفات لتحديد مهام وميادين تدخل الديداكتيك أو الفعل الديداكتيكي. وهكذا يتبين لنا مما سبق أن الديداكتيك هي مقارنة خاصة لمشكلات التعليم، لا تشكل حقلا معرفيا خاصا أو علما مستقلا – حتى وإن ذهب البعض إلى ذلك أو كانت الديداكتيك ذاتها تنشد ذلك- وذلك على الأقل في المرحلة الراهنة من تطورها. وليس السبب في ذلك تقاطعها وتشابكها مع حقول التربية الأخرى، إذ قد يكون العلم قائما بذاته ولا يمنعه ذلك من التواصل مع غيره، بل بسبب مشكلات ابستمولوجية وميتودولوجية كثيرة يطرحها موضوعه ومنهجه، فالتعلم مثلا، وبالرغم من أن التعليمية تتناول مشكلات تعليمية، لا يشكل موضوعا للديداكتيك بل لعلم النفس التربوي . وهو ما يجعل البعض يميل إلى اعتباره علما تطبيقيا موضوعه تحليل العملية التعليمية التعليمية وتحضير وتجريب وتقييم الاستراتيجيات التربوية وإعداد نماذج معيارية . نقول هذا ونشير إلى استمرار البحوث والنقاش حول المفهوم مع الإشارة أيضا إلى مدى التقدم الذي تحقق في هذا المجال، يشهد على ذلك ما أشرنا إليه من قبل عندما تحدثنا عن الهوس الديداكتيكي. إلا أن هذا الجدل لا يمنعنا من تمييز مجالات التدخل الديداكتيكي ومنها:

-المسائل الابستمولوجية التي تطرحها كل مادة بحسب خصوصياتها والتي يتم تناولها عند النقل الديداكتيكي سواء فيما تعلق بإعداد المناهج التربوية وتحويل المعارف العالمية إلى معارف موجهة للتدريس أو عند الإعداد للوضعيات التعليمية- التعليمية أي الانتقال بتلك المعارف إلى معرفة مُدْرَسَة، منظمة ومدمجة ومكيفة بحسب مقتضيات تلك الوضعيات.

-ويترتب عنه مسائل التخطيط والاستراتيجيا والتنظيم ونعني بذلك الجوانب الميتودولوجية والبيداغوجية أو الأساليب الكفيلة بتبليغ تلك المعارف والمهارات بما يحقق الأهداف المنشودة من الوضعيات التعليمية – التعليمية. وهنا يبرز الطابع التطبيقي للديداكتيك حيث يتمثل جل جهدها في إعداد استراتيجيات تعليمية وتطبيقها وتقويمها وكذا إعداد المشاريع التعليمية.

-التفكير في انشغالات المتعلم وحاجاته بما يستلزمه ذلك من تحضير لكيفيات الاستجابة لها وإشباعها . وكذا تناول قضايا تمثلات المتعلم للمحيط وكذلك العوائق النفسية بالأساس التي تمنع عملية التعلم بتشخيصها والعمل على تجاوزها.

-انتقاء الوسائل التعليمية الضرورية للعملية التعليمية - التعليمية مثل الكتاب المدرسي والوسائل المادية الأخرى.

-وتتقاطع الديداكتيك مع علوم التقويم، إذ يتمثل التعليمي أيضا في إعداد مخططات التقويم بما تتضمنه من أنشطة تشخيص وتقويم وتغذية راجعة... وبالتالي قياس مدى تحقق الأهداف.

وهكذا فالديداكتيك تثير قضايا تتعلق بمحتوى المادة الدراسية وبنيتها، وهي قضايا ابستمولوجية بالأساس كما تطرح مشكلات نفسية تتعلق بالمتعلم في وضعية التعلم. ويكون موضوعها بالتالي تحليل العملية التعليمية - التعليمية وما تطرحه من مشكلات نفسية ومعرفية وكذا استراتيجيات التعلم . وغاية هذه المقاربة نظريا صياغة نماذج معيارية وعملية تثمين خبرة المعلم وتقويمها ونقلها حتى يدرك المعلم طبيعة عمله والمشاكل التي تعترضه بما يكفل له القيام بعمله بكيفية علمية واعية ومتبصرة. وهذا بغرض تحقيق الاحترافية والعقلانية في التعليم بما يضمن الجودة وتحسين المردود التعليمي.

وعليه تتفرع الديداكتيك حسب كوب Koop الى فرعين :

-نظرية لمحتويات التدريس.

-نظرية لطرق التدريس.

وأنه تبعا لذلك يكون علم التدريس : " علم محتويات التدريس وطرقه " ¹⁰ ولا زال يتركز النقاش اليوم بين من يرى في الديداكتيك فرعا من البيداغوجيا يتمحور حول النشاط التعليمي والاتجاه القائل بعلميته واستقلاله عنها. ويجري عادة التمييز في الديداكتيك بين مبحثي :

-الديداكتيك العام : موضوعها مجموع المواد الدراسية وتعنى بمجموع المبادئ والقواعد التي يجري تطبيقها في مختلف المواد الدراسية ويهتم قسم منها بالوضعية التعليمية- التعليمية بصفة عامة والقسم الثاني بالقوانين العامة لعلم التدريس.

-الديداكتيك الخاص : وتعنى بالتخطيط للوضعيات التعليمية - التعليمية على مستوى كل مادة على حدى.

ويحدد محمد الدريج هذين الفرعين بقوله : " علم التدريس العام هو مجموع المعارف التعليمية القابلة للتطبيق في مختلف المواقف ولفائدة جميع التلاميذ" أما علم التدريس الخاص فيقصد به : " الاهتمام بالنشاط التعليمي داخل القسم في ارتباطه بالمواد الدراسية، والاهتمام بالقضايا التربوية في علاقتها بهذه المادة أو بتلك " ¹¹.

بين البيداغوجيا والديداكتيك:

يحاول معجم علوم التربية تلمس دلالات هذا اللفظ بقوله : " يمكن تمييز استعمالين للفظ بيداغوجيا أكثر تحديدا وهما :

(1) حقل معرفي قوامه تفكير فلسفي وسيكولوجي في غايات وتوجهات الأفعال المطلوب ممارستها، في وضعية التعليم أو التربية، على الطفل أو الراشد أو بواسطتهما...

(2) ... يمكن تعريف البيداغوجيا باعتبارها اختيار طريقة ما في التدريس أو إجراءات وتقنيات معينة، وتوظيفها بارتباط مع وضعية تعليمية.¹²

ويعترف أصحاب المعجم بعد ذلك بصعوبة الوصول إلى تعريف جامع مانع لتعدد دلالات البيداغوجيا وتقاطعها مع حقول تربوية عديدة. ومع ذلك يمكن استجلاء تلك الدلالات بالأخص من خلال تحليل علاقتها بالديداكتيك مع الاعتراف بصعوبة المهمة نظرا لواقع التداخل بينهما.

ويجب الإشارة في البداية أن المعنى الاشتقاقي من اليونانية، *ped* الطفل *agoge* القيادة والتوجيه، يشير إلى أن البيداغوجيا كانت تعني التربية ولكن التطور الحضاري أفضى إلى تحول البيداغوجيا إلى مقارنة منهجية لكيفية تبليغ المعرفة . غير أنه وبرغم ذلك ظلت مرتبطة بالفلسفة في حين تنحو الديداكتيك منحنى علمي. يتجلى ذلك أكثر في تعدد النظريات البيداغوجية واختلافها لكونها تعبير عن فلسفات في التربية ومقاربات نظرية متميزة . ويتجلى أكثر في تركيز البيداغوجيا على غايات عملية التعلم أو الأهداف والكفاءات التي يرمي إليها النظام التربوي برمته أو كل مادة على حدى. وكذلك في رسمها لمنهجية التعليم، حيث نشير في هذا الصدد إلى التطور الذي عرفته البيداغوجيا، إذ يجري عادة التمييز بين بيداغوجيا تقليدية كان يُنظرُ فيها إلى التعليم بوصفه عملية تلقين لمعارف جاهزة ويمثل فيها المعلم المحور. وبيداغوجيا الأهداف المستمدة من النظرية السلوكية في التعلم، وفي هذه النظرية يجري التركيز على الأهداف المتوخاة من التعليم والتي يجري تحقيقها بشكل تصاعدي من البسيط إلى المركب وهي أهداف معرفية وإجرائية. وبيداغوجيا الكفاءات المستمدة من النظرية البنائية، التي أصبح فيها المتعلم هو المحور في الوضعية التعليمية-التعلمية التي يدبرها ويسيرها المعلم وتعتبر عن علاقة تفاعلية وتشاركية بين أطرافها.

ما يضيف على البحث البيداغوجي طابعا نظريا بالمقارنة مع المقاربة الديداكتيكية التي تعمل على الاقتراب أكثر من الممارسة التعليمية بتقديم نماذج تدريسية تشخص العوائق وتعالج ظواهر الفشل الدراسي وتتطلع ضمان النوعية والجودة في التعليم. وفيما أصبح الحديث يجري عن التمثلات والعوائق وعن الوضعية التعليمية-التعلمية وعن الانزياحات وكذا المثلث والعقد الديداكتيكيين. وهي أكثر ارتباطا بالمواد الدراسية، بمشاكلها وخصوصياتها وبالعمل التعليمي فحسب – وذلك على خلاف البيداغوجيا التي ترتبط بالتربية عموما – وهو ما يجعل منها بحثا ميدانيا تطبيقيا وتجريبيا، يقترب بها من العلم أكثر. ولعل هذا ما حفز البعض على القول باستقلالها وكونها علما قائما بذاته.

وتلخص الدكتور بن حملة هذه العلاقة في ثلاثة توجهات، توجه يرى في الديدانكتيك فرعاً من البيداغوجيا ويمثله بالأخص Mialaret . وتوجه غالب يميز بينهما على أساس أن البيداغوجيا تنحصر وظيفتها في العلاقة بين المعلم والمتعلم بينما تأخذ الديدانكتيك بعداً إبستمولوجياً إذ تركز على المعرفة المدرسية وعلى علاقة المتعلم بالمعرفة. وبالنسبة لتوجه ثالث يمثله بالأخص J.P.Astolfi تكون البيداغوجيا ذاتها مكون من مكونات الديدانكتيك ما دامت العلاقة بين المعلم والمتعلم متضمنة في المثلث اليداكتيكي.¹³ بل إن من المفكرين اليوم من يقول بأن الديدانكتيك صارت بالتدريج تحتل موقع البيداغوجيا خاصة عندما اتسع مجال الأولى من التركيز على المعرفة المدرسية إلى التفكير في طرائق التدريس وغايات التعليم ومنه أيضاً إلى تناول مشاكل المتعلم النفسية لتطرح قضايا تمثلاته والعوائق التي تترتب عن اتصاله بالمعرفة وكذا موقعه والتزامه في إطار العقد اليداكتيكي.

بعض مفاهيم الديدانكتيك :

1- النقل اليداكتيكي *Transposition Didactique*: يعرفه معجم علوم التربية : " مفهوم أساسي من مفاهيم ديدانكتيك الرياضيات . ويقصد به العملية التي يتم بها الانتقال بالمعارف الرياضية من مستوى معارف علمية دقيقة ينتجها المختصون إلى مستوى معرفة قابلة للتعليم والتعلم." ¹⁴ أي نقل المعرفة من الحقل العلمي البحت إلى فضاء التعليم والممارسة التربوية، وفقاً لمستويات النمو العقلي والنفسي للمتعلمين وكذا حاجاتهم وانشغالاتهم. إنه بالجملة عمل انتقاء وعزل واختزال للمعرفة لتحويلها إلى المجال المدرسي وفق شروط ومقاييس العملية التعليمية التي تخضعها لتغيرات سواء في الشكل أو المضمون، وتحولات تخرجها من حالتها الخام ومن سياقها السوسولوجي الثقافي لتدمجها وتعطيها وظيفة ضمن سياق دراسي. أو إن شئنا هو إعادة هيكلة لهذه المعرفة.

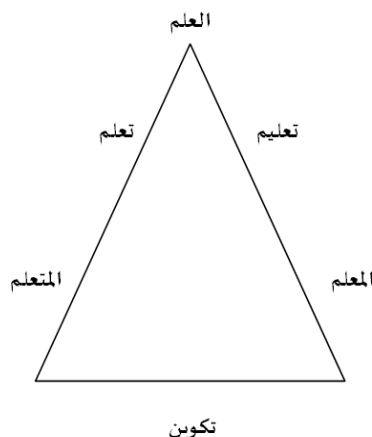
وهو يتم على مستويين:

مستوى إعداد المناهج التعليمية حيث يتم الانتقال من المعرفة العامة الخالصة إلى المعرفة الواجب تدريسها. ويتمثل في وضع البرامج الدراسية والوثائق المرافقة لها وتأليف الكتب المدرسية وانتقاء الوسائل المدرسية.

مستوى تدبير وتخطيط الوضعيات التعليمية-التعلمية، ويسمى أيضاً التحضير. ويتمثل في مجمل العمليات التي يقوم بها المعلم لإعداد المادة الدراسية وتكييف مضامين الكتب المدرسية ومختلف المصادر والمراجع الشخصية التي يعتمد عليها مع المستوى الفعلي للمتعلمين . وما يقتضيه ذلك من تبسيط للمعارف واختيار لغة التواصل ووسائل الإيضاح، مع مراعاة مبدأ التدرج . ما يتطلب من المعلم جهد إبداعي وحس استراتيجي في تصور الوضعيات التعليمية-التعلمية وانتقاء الدعائم والسندات. وهو ما يسمى أيضاً بالمعالجة اليداكتيكية.

2- المثلث اليداكتيكي *Le Triangle Didactique*:

يقصد به مجموع العلاقات التفاعلية بين أطراف العملية التعليمية-التعلمية، المتمثلة بالعلم والمعلم والمتعلم. والتي تتطلب تفعيلًا لدور كل قطب من أقطاب هذا المثلث في صورة اتصال وتواصل. ويرى جان هوساي Jean Houssaye أنه لا يمكن تصور العملية التعليمية-التعلمية خارج هذا المثلث الذي يمثل التكامل أساس العلاقة بين أطرافه.



وتهتم الديداكتيك بتحليل هذه العلاقات التي تتجلى في الوضعيات التعليمية-التعلمية أي بمسائل التدبير الديداكتيكي للمعلم المتمثل في تصوره للوضعيات الديداكتيكية وتنظيمه للمعرفة ومنهجية تقديمها، وهذا الهمل ذو بعد إبستمولوجي يعكس علاقة المعلم بالعلم. وبعد بيداغوجي يتمثل في علاقة المعلم بالمتعلم يقف فيه المعلم على الفروق الفردية بين المتعلمين وعلى ميولهم واتجاهاتهم وكذا انشغالاتهم وحاجاتهم، وهو يتوقف على الكفاءات التواصلية للمعلم. وبعد تكويني يعكس علاقة المتعلم بالعلم وفيه يتناول الديداكتيكيون مسائل تمثلات المتعلم وتصورات والعوائق التي تواجهها عملية التعلم.

وهذا التفاعل بين أقطاب المثلث يشكل المعيار للتمييز بين طرق تعليمية قديمة وعصرية. ويحذر الديداكتيكيون من مجموعة من الانزياحات التي تعرفها العملية التعليمية، كالتركيز على المعرفة وإغفال المتعلم أو العكس بالتركيز على البعد النفسي على حساب الجوانب الإبستمولوجية. ويتصور هؤلاء أن أنجح وضعية هي التي يكون فيها المعلم وسيطا فعالا بين المعرفة والمتعلمين، بحيث يحفز على التعلم ويساهم في التعليم، وهذا يتوقف على حسه الاستراتيجي أي حسن تدبيره للوضعيات الديداكتيكية.

3- العقد الديداكتيكي Contrat Didactique :

مفهوم أدخله كل من غي بروسو Guy Brousseau وإيف شوفالار Yves Chevallard ويقصدان به، نسق من الالتزامات المتبادلة بين طرفي العملية التعليمية-التعلمية (المعلم والمتعلم) والتي ينبغي أن تتجلى في سلوكات وأعمال محددة، مبنية على قواعد معلومة منهما وتفرضها طبيعة المادة التعليمية. جاء بخصوصه في معجم علوم التربية: " اتفاق تعاقد بين طرفين هما المدرس والتلميذ، وينبغي هذا الاتفاق على مفاوضة بينهما حول متطلبات المتعلم وأهداف التعليم وواجبات كل طرف وحقوقه وأهداف ومرامي عملية التعليم والتكوين"¹⁵.

إذا هو التزام قانوني وأخلاقي متبادل يحدد صراحة أو ضمنا مطالب طرفي العملية التعليمية-التعلمية وانتظاراتهما في إطار اتفاق يتم فيه تحديد الأهداف ورسم الخطط لتحقيقها. الشيء الذي يعني أنه يتوقف أساسا على الإقناع والحوار الذي يقوم بين الطرفين ما يتطلب خاصة من المعلم كفاءات تواصلية وقدرة على الحجاج والاستدراج ولكن أولا وقبل كل هذا كفاءة في اختصاصه وتمكنا من مادته التعليمية وانفتاحا على المتعلم. الشيء الذي يعني أن التعليم عملية تشاركية يلعب فيها كل طرف دورا فعالا. ونجاح هذا العمل يتوقف على مدى الالتزام بالعقد التعليمي لأن كل إخلال ببنوده يؤدي إلى ما يسعى في الديداكتيك بالانزياحات التعليمية.

وهكذا وبموجب هذا الالتزام يتجاوز المعلم عنصر المفاجأة الذي لم يعد مرغوبا في التعليمية اليوم، لما يتسبب فيه من إحباط للمتعلم ويشعره بمحاولة تحديه من طرف المعلم ويؤدي بالتالي الى ردود أفعال غير محسوبة، كما يقل شعور المتعلم بالاكراهات التي تملها عملية التعلم ليحل محلها الشعور بالواجب والمسؤولية ويصبح التعليم عبارة عن مشاريع يفتتحها المتعلم بتوجيه من معلمه.

4- التمثلات-العوائق Représentations et Obstacles:

التمثلات هي مجموع التصورات التي يمتلكها المتعلم عن العالم والأشياء والتي مصدرها محيطه الاجتماعي-الثقافي. والعمل الديداكتيكي يتمثل في معالجة تمثلات المتعلم لإحلال تصورات أخرى محلها أكثر تأسيسا من الناحية العلمية. فالمتعلم لا ينتقل من الجهل إلى المعرفة بل من تمثل إلى آخر يكون أكثر نضجا وإنتاجا. وإذا كان البعض يدعو إلى تخطي التمثلات على اعتبار أنها تشكل عوائق أمام التعلم فإن الكثير من الديداكتيكيين يدعون إلى استثمارها ومعالجتها بوصفها نظام تفسيري وجب التعامل معه على أساس أنه منطلق لعملية التعلم.

أما العوائق فهي بمثابة عتبات تحول دون التعلم. ويرى جان لويس مارتيناند Jean Louis Martinand أنه ينبغي الانطلاق من العوائق الحقيقية لتحديد أهداف عملية التعلم. وهو من أدخل مفهوم الهدف/العائق Objectif/Obstacle ويقصد به إمكانية استثمار العائق. إن تشخيص العوائق والكشف عنها ومعالجتها يعد عملا جوهريا في الديداكتيك.

خلاصة:

والآن ونحن على مقربة من نهاية هذا المقال، ماذا يمكن قوله ؟ إن الهدف الأساسي منه كان هو التعريف بالتعليمية وبأهميتها. وإن أهم درس نستفيد من الديداكتيك، في أوضاعنا التربوية الراهنة حيث الإصلاح التربوي لا زال متعثرا، وحيث يعرف القطاع التربوي عملية تشييب – بسبب إحالة عدد هائل من التربويين على التقاعد- في غياب مؤسسات متخصصة في التكوين، ما يفضي إلى ظواهر التلقين والإملاء والحفظ والنمطية في التدريس بالإضافة إلى ظواهر أخرى لا يتسع المقال لسردها كلها ترتبت عن عدم انتقال الخبرة التي تم تحصيلها من طرف المعلمين في العشريات التي أعقبت الاستقلال الوطني، إن أهم درس هو التدبير الديداكتيكي أي امتلاك المعلم الحس الاستراتيجي والتدرب على تخطيط الوضعيات التعليمية- التعلمية والتحكم في تسييرها والاستعداد للاستجابة لانشغالات المتعلمين بروح من الانفتاح والقدرة على التواصل بما يعطي للتعلمات معنى ودلالة تستثير المتعلم وتحفزه على العمل والإنتاج. وبديهي أن هذا يقتضي تحكما في المعارف والمضامين وقدرة على انتقاها وتنظيمها واختزالها لدمجها وتكييفها ومطالب الدرس وإتباع مناهج ملائمة للتواصل في إطار العمل التعليمي وهو ما يسمى في الديداكتيك بالهندسة الديداكتيكية وهو المفهوم الذي أدخله الفرنسي ميشال أرتيغ michel artigue ويتمثل في إعداد الوضعيات التعليمية انطلاقا من فرضيات ونتائج البحوث العلمية، وتجريب مقاطع تعليمية، واستعمال أدوات ديداكتيكية مصدق عليها، وبالتالي تحديد الطرائق والتقنيات الكفيلة بخلق بيئة ملائمة للتعليم والارتقاء بالتالي بمستوى التعليم وضمان جودته ومردوده لأن الهدف الأخير يبقى في كل منظومة تربوية الجودة والمردودية.

وهكذا يتبين أن التعليم عمل ميداني، وكل المناهج والوثائق والفروض والنظريات فيه تتوقف قيمتها على فعاليتها في الممارسة الصفية. فنذكر قيمة الخبرة التي تراكمت لأجيال من المعلمين والتي تبددت للأسف نظرا لعدم تواصل الأجيال وعدم وضع الآليات الكفيلة بنقلها ومراكمتها لتكون موضوع دراسات علمية في الديداكتيك وهذا هو منطلق البحث العلمي والتطور في مجال من المجالات. ومن اللافت أننا عندما بدأنا بفضل الإصلاح الحالي نتعرف على بيداغوجيا الكفاءات تفاجئنا لأن الكثير مما كنا نقوم بممارسته داخل أقسامنا وارد فيها ونحن لم نتلق أي تكوين في البيداغوجيا أو الديداكتيك اللهم ما تحصل لدينا بفعل الممارسة والجهد الشخصي. إننا نرى اليوم تلك النخبة تحال على التقاعد أو تستقطبها الجامعة دون أن تستفيد منها الأجيال اللاحقة في التدريس. وما هو الديداكتيك إن لم يكن مراكمة لتلك الخبرة ودراسة علمية لها لوضع نماذج لممارسات ناجحة !؟

وبين أننا إذ نتحدث عن النجاح والمردودية والجودة نشير بذلك إلى تأثير الفلسفة البراغماتية وتوجهات المجتمعات الصناعية البين في الفكر التربوي المعاصر.

وهو ما يلزمنا في الأخير بالتنبيه لبعض مزالق الديداكتيك والديداكتيكيين – وهو ما أشرنا إليه في بداية هذا المقال عندما تحدثنا عن الانحراف الديداكتيكي. ومن أشهرها أن مطلب الاحترافية قد يفضي إلى نمطية جديدة بحيث يصبح التعليم فعلا تقنيا. الشيء الذي سينتهي حتما إلى إفراغه من

بعده الفكري-الثقافي، ويفقده طابعه الحر والإبداعي الذي يعبر عن خصوصية المعلم وشخصيته وكذلك المتعلم إذ يخضعه لقوالب جاهزة تم تصميمها بمعزل عن فكره وإرادته. ولا يخفى ما في هذا التوجه من بعد إيديولوجي حذر منه هابرماس - مثلا - في حديثه عن الضبط والتحكم كأدوات للسلطة في الدولة الرأسمالية، وكذلك عند حديثه عن العقل الأداتي. وهو ما يشير إليه الباحث الجزائري الدكتور حبيب تيلوين في قوله : " ... فالدولة الحديثة ورغبة منها في المزيد من الهيمنة والرقابة على جميع الأنشطة ذات الطابع الاجتماعي أصبحت تطالب بالمزيد من التدخل والرقابة وكانت نتيجة لذلك الدعوة إلى تحويل وظيفة التدريس إلى احترافية تجعل منها تشبه مهنة الطب أو المحاماة..."¹⁶.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1-Pierre Parlebas , Didactique et logique interne des activités physiques et sportives Les Actes de Lecture , n° 39 sept 1992 , Paris.
- 2-Philippe Sarremejane , Histoire des didactiques disciplinaires ,L'Harmattan Paris 2001,P 9.
- 3 - عبد الجليل معروف، ديداكتيك العلوم : النشأة والتطور، الاتحاد الاشتراكي، المغرب، 2010-11-25.
- 4- عابد بوهادي، تحليل الفعل الديداكتيكي (مقارنة لسانية بيداغوجية) دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية
- 5- موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل منشورات عويدات . بيروت- باريس . الطبعة الثانية 2001. الجزء الأول A-G . ص 276.
- 6- عبد اللطيف الفاربي وآخرون، معجم علوم التربية (مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك) . دار الخطابي للطباعة والنشر، المغرب، الطبعة الأولى 1994، ص 69 .
- 7- مصطفى حسناوي، الديداكتيك من التصور إلى الأجراء- ديداكتيك الاجتماعيات نموذجاً، <http://www.maghress.com/alittihad/208110>
- 8- عبد العالي عارف " الطرق الديداكتيكية : محاولة في التصنيف " مجلة الدراسات النفسية والتربوية، المغرب، العدد 11، ديسمبر 1990، ص 23.
- 9- محمد الدريج، عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل، <http://www.educpress.com/10290.edu>
- 10 - محمد الدريج " عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل " <http://www.educpress.com/10290.edu>
- 11 - محمد الدريج، عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل <http://www.educpress.com/10290.edu>
- 12 - معجم علوم التربية ص 255.
- 13 -Dr Zoubeida Benhamla. (De la pédagogie à la didactologie :histoire d'une discipline ou histoire de concepts ? Synergies-Algerie n° 15-2012.p21.
- 14- معجم علوم التربية ص 350.
- 15- معجم علوم التربية ص 54.
- 16- د.حبيب تيلوين : مغالطات الديداكتيك والديداكتيكيين . في : الفلسفة والديداكتيك - سلسلة منشورات مخبر العمليات التربوية والسياق الاجتماعي - دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران . بدون تاريخ، ص 203.